

الجامعة والاستثمار المفقود

د.عبد المجيد بيرم

أستاذ محاضر

كلية العلوم الإسلامية

ملخص:

إن دور الجامعة لا يتوقف عند تلقين العلوم والمعارف دون التعرّيج على التحسيس بثقل المسؤولية لهذه الفئة نحو أمتهم ووطنهم وأمام الله تعالى والأجيال، بل هذا الجانب مما يتعين على الجامعة الاضطلاع به في إعداد هذه النخبة علميا وثقافيا وروحيا وحضاريا، وهذا يتوقف على حسن الاستثمار في "الإنسان" لتحقيق "تنمية" شاملة وذلك ببعث "القيم" التي تنهض عليها المجتمعات، وذلك من خلال وضع مفردات في المقررات الدراسية في المراحل التعليمية بما في ذلك المرحلة الجامعية، بحث تعطي هذا الجانب ما يستحقه من الاهتمام والعناية.

المقدمة:

إنّ الأهمية المتزايدة لدور المؤسسات العلمية ومنها الجامعات - في الدول المتقدمة - تدفعنا لتقييم هذا الدور، والتساؤل ما إذا كانت جامعاتنا فعلا هي المصنع الذي ينتج الكفاءات للمساهمة في تنمية المجتمع، والنهوض به في المجالات المختلفة، الفكرية والثقافية والتكنولوجية والاقتصادية، أو أنها مجرد هياكل تخرّج لنا أصحاب شهادات.

إن العلم والتعليم بصفة عامة هو عصب تقدم الأمم، لذا نرى الدول المتقدمة تولي التعليم عناية قصوى وليس فقط لأجل تربية العقول السليمة ولكن من أجل التأكد من مواكبتها للتغيرات والتطورات المستجدة.

فالجامعة وما فيها من دراسات معمقة وبحث علمي أكاديمي لها صلة وثيقة بصناعة مستقبل المجتمع، ودور فعال في التنمية، وهذا ما أطلق عليه "مجتمع

المعرفة" (عبد الكبير، ع. 1427هـ، 74) الذي يوظف المعرفة في عملية سير المجتمع وتطوره في المجالات المختلفة، وتكون المعرفة أساسا لتنظيم المجتمع وتعاملاته.

والملاحظ في جامعاتنا أن هذه النظرة إلى الجامعة والتعليم لم تأخذ موقعها المطلوب في قائمة الاهتمامات المجتمعية، ولا تزال النظرة إلى التعليم ومقاصده وغاياته ضيقة بحيث لا تؤهل الجامعة إلى الحضور بقوة في مجالات إنتاج المعرفة والتكنولوجيا واستشراف المستقبل والتنمية الشاملة.

فالتعليم الجامعي اليوم يحتل أهمية متزايدة نظرا لتشعب المعارف وتكاثر التخصصات بحيث يُشكل إطاراً للمرجعية في المزج بين القديم والجديد، وتعدّ الخزان الاحتياطي الذي يمدّ المجتمع بالكفاءات والإطارات والباحثين في شتى الفروع والتخصصات، ولكي نتصور أهمية التعليم الجامعي والحاجة إليه نفترض ما ذكره أحد الباحثين: "هو أن نعدم إلى حذف وظائف الجامعة وإغائها، لنرى أية وضعية معرفية وحضارية تكون لدينا، ولننتصور مجتمعا من غير معلمين ولا مهندسين ولا أطباء ولا صناعيين (ولا قضاة) ماذا ستكون حاله (بكار، ع. 1422هـ، 229)؟

فالجامعة أضحت رمزاً من رموز السيادة الوطنية وعنصرا من عناصر تكوين الدول، وحسبنا أن نذكر ما قاله أحد الزعماء الصهاينة عند افتتاح الجامعة العبرية: "الآن تمّ بناء الدولة" (بكار، ع. 1422هـ، 230).

إنّ الجامعة وما تقوم به من تعليم وتلقين وتوجيه هي المدخل والمفتاح لكل نهوض وتطوير وتنمية، وأية محاولة لنهضة وتنمية تكون بعيدة عن مؤسسات التربية والتعليم هي نوع من الحراثة في البحر، والتاريخ والواقع والتجربة تؤكد أن التعليم والتربية في جميع الأطوار بما في ذلك المرحلة الجامعية هي السبيل الأوحى للتنمية الشاملة حتى حدا الأمر ببعض الباحثين إلى القول "بأنّ التربية هي التنمية بكل أبعادها".

فالمؤسسات التعليمية والتربوية هي التي تخرج لنا القادة من السياسيين والمفكرين والاقتصاديين والإعلاميين والعسكريين وسائر المسؤولين في شتى المواقع (حسنة، ع. 1419هـ، 68).

الإنسان رأس المال:

أدرك الباحثون في السبعينات من القرن الماضي أهمية العنصر البشري في اقتصاديات النمو والتنمية مما أدى إلى تشكل في الفكر التنموي مدرسة "رأس المال البشري" (راجع الشيخ، خ. 2000، 76) وهي المدرسة التي ترى أن العامل الحاسم في العملية التنموية هو "الإنسان" لكونه هو المحرك الرئيسي للعملية برمتها.

ولكي نجعل من الإنسان "رأس المال البشري" محوراً رئيسياً في النهوض والتنمية والتغيير يتوقف الأمر على حسن الاستثمار فيه، وذلك بتعليمه وتكوينه وتغذيته بالمعاني والقيم التي تجعله يوقن أن ما يقوم به من جهد وعمل في أي مجال من مجالات الحياة إنما يشارك ليبني جيلاً ويصون أمته ومجتمعه، ويتقرب إلى خالقه زلفى.

واعتبار أن "الإنسان" هو "رأس المال" الأول في العملية التنموية يستلزم الاستثمار فيه من جوانب متعددة هي:

- أ- الجانب التعليمي.
- ب- الجانب الفكري.
- ج- الجانب الثقافي.
- د- الجانب الاجتماعي.
- هـ- الجانب العقدي.

وبعض التجارب التي قامت في بعض الدول أكدت هذه الحقيقة بحيث تضاعلت مكانة رأس المال المالي والطبيعي أمام الأهمية الكبيرة التي يكتسبها رأس المال البشري.

فالتعليم بجميع مراحل وأشكاله يعتبر عماد نظرية الاستثمار في رأس المال البشري، فإن التعليم العالي والجامعة على وجه الخصوص تقوم بالدور المحوري في تشكيل الصنوف الأكثر رقيا من رأس المال الإنساني، وهي الحلقة لأكثر فاعلية في إنتاج المعرفة وتكوين الثروة، إذ هي عماد التقدم في زماننا.

وحسبي في هذا المقام أن أذكر بإيجاز دور رأس المال البشري في دفع عجلة النمو الاقتصادي والاجتماعي كما جاء في بعض الدراسات.

1- أن التحصيل العلمي ونوعيته يؤدي إلى زيادة الإنتاجية للعامل، وتزداد إنتاجيته بارتفاع المستوى التعليمي الكمي والنوعي، وبارتفاع الإنتاجية يرتفع معدل النمو الاقتصادي (14، 2004م، BEN SALAH, K).

2- ارتفاع الإنتاجية بفعل التعليم يتيح بجانب ارتفاع معدل النمو الاقتصادي تحقيق زيادة في الأرباح والأجور لأطراف العمل، وهذا بدوره يقود إلى ارتفاع معدلات الطلب والاستثمار والتشغيل إلى غير ذلك مما يذكره الاقتصاديون (راجع الشيخ، خالد، 2000م، 76).

بالإضافة إلى ذلك أظهرت البحوث والدراسات أن للتعليم انعكاسات اجتماعية إيجابية من أبرزها:

أ- انخفاض معدلات الفقر كلما ارتفع مستوى التعليم للفرد والأسرة والمجتمع.

ب- تقلص دائرة الإجرام من جراء اعتماد سياسة حكيمة في التربية والتعليم.

والحاصل أن مستوى أشمل وأعلى من التعليم يعني مستوى أعلى من التنمية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وعليه فإن بالاستثمار في العنصر البشري استثمار مضمون وطويل المدى ومرتفع العائد، وفي واقعنا المعاصر نرى مجتمعات لا تملك موارد طبيعية ضخمة ولا ثروات باطنية أو رأس المال المادي، لكنها

استطاعت أن تحقق نقلة نوعية في مجال التقدم حتى غزت غيرها اقتصاديا في عقر دارها، وذلك بفضل الاستثمار في رأس المال البشري، والتعليم هو مفتاح التنمية والتقدم.

الجانب المفقود في الاستثمار في الجامعة.

فروع العلوم الموجودة في الجامعات والكليات كثيرة بحيث يتعذر على المرء الإحاطة بها إحاطة كاملة في مفرداتها وتفرعاتها، وكل فرع من فروع المعرفة يعمل على سد جانب من جوانب الحياة المختلفة، ويتكامل هذه التخصصات والفروع يمكن الوصول إلى أهداف مسطرة.

ولا أتوقف كثيرا عند المهام التي تضطلع بها الجامعة من تعليم المعرفة والعلوم وإنتاجها وغير ذلك من المهام ولا في عرض الفروع العلمية فيها وإنما أتوقف عند جانب لا يحظى باهتمام يذكر - وهو الاستثمار في رجل الغد في الجانب الروحي وذلك بقوة الشعور بالانتماء لديه وتنمية مجموعة من المعاني القيم التي تساعد على اتخاذ المبادرات والمواقف الصحيحة والإسهام في الحياة العامة بفكر ثاقب وعمل نافع متقن وبمسؤولية وأمانة.

و مما نسجله بأسى وألم في هذا المقام أن منطقتنا العربية ومنها الجزائر تحتل المراتب الأخيرة في قائمة الدول التي تستثمر في تنمية الإنسان كما تدل عليه (IDH) مؤشر التنمية الإنسانية (11، 2004، K BEN SALAH).

وبسبب غياب الرؤية الواضحة في الاستثمار في هذا الجانب بترسيخ الهوية والبعد الثقافي والانتماء الحضاري أصبحت الجامعات تخرج لنا دفعات من الطلبة غير محصنين فكريا وحضاريا تجاه دعوات ونظريات بحيث تجعله فريسة سهلة، كما نلاحظ بين كثير من المتقنين والخارجين عدم الاتفاق حول القضايا الجوهرية التي لا مجال للاختلاف فيها باعتبارها من الثوابت، بالإضافة إلى ذلك

ضعف الشعور بالمسؤولية، إلى غير ذلك من السلبيات مما يتأكد لنا غياب تصور واضح في هذا الجانب.

وهذا يقتضي ضرورة تدعيم الثقافة الأساسية في برامجنا التعليمية في كل الفروع والتخصصات بمفردات تشكل البنية العميقة لبناء الفرد ليكون عنصرا إيجابيا لنفسه ولوطنه وأمتة، ويحتل الجانب الإيماني في الإنسان المقام الأول، بالإضافة إلى ترسيخ القيم الأخلاقية التي تعدّ العناصر الضرورية لأية نهضة أو تغيير هادف مأمول.

وبعبارة أوضح أستعير ما قاله الباحث الكبير الدكتور عبد الكريم بكار: "أن البداية الصحيحة لكل تنمية شاملة ونهضة حضارية متكاملة تتمثل في الارتقاء بالعلاقة بين العبد وربّه" (بكار، ع. 1422، 229).

الدين أكبر محرك للتنمية:

يمثل الدين أكبر عامل من عوامل الرقابة على الإنسان، ومن أقوى المحفزات على الجد وإتقان العمل والشعور بالمسؤولية، وليس معنى هذا أن لا نجتهد في وضع الخطط التنموية قصيرة أو طويلة المدى، أو وضع منظومة قانونية تجمع بين الحوافز والعقوبات في هذا الشأن فحسب، وإنما نضيف إلى هذا استثمار الجانب الإيماني في الإنسان لنجعل منه رقيقا على نفسه قبل الرقابة القانونية، ويمثل هذا الجانب أهمية بالغة، فقد أكد بعض الخبراء الاقتصاديين أن من عوامل النهوض الاقتصادي في الدول الآسيوية التي أطلق عليها "النمور الآسيوية" توافق المشاريع الاقتصادية مع المعتقدات.

والواقع التاريخي أثبت بأن القفز على الحقائق يؤدي إلى الفشل، فمشروع شاخت مارشال الذي نهض بالاقتصاد الألماني بعد الحرب العالمية الثانية مُني بالفشل حينما حاولوا استنساخه في بلد كاندونيسيا، لأنه لم يراع الفروق بينهما، إذ أهمل جانبها هاما في العملية الاقتصادية وعاملا أساسيا ألا وهو الإنسان (بن نبي، م. 1977م، 53).

وإذا رجعنا إلى تعاليم ديننا الحنيف نجد أنه يؤكد على ضرورة إسناد المسؤوليات وتوكيل المهام لمن له أهلية وكفاءة ومن هو أقدر على القيام بها، فالإسلام يقرر أن من ولى على المسلمين رجلاً وهو يرى من هو أحق منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين.

وفي التنزيل: {إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} (سورة القصص: الآية 26)، قوة فكرية وبدنية وكفاءة علمية، أي التخصص مع الأمانة.

ومن النصوص النبوية: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" وفي الصحيح "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" (رواه مسلم، كتاب الصيد، رقم 1955) إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبرز هذا الجانب من نشاطات الإنسان، وعليه فإننا نقرر أنه مهما كانت الخطط والمشاريع التنموية ناجعة، ومهما كانت الأموال المرصودة لها ضخمة، إذا أهملنا جانب "الإنسان" في هذه العملية، فإننا لن نصل إلى نتائج ذات بال، فالإنسان هو محور العملية التنموية، وقد رأينا بعض الدول التي لا تملك موارد طبيعية ولكنها تملك "رأس المال البشري" لها عقول تفكر، ولها سواعد تعمل، ونفوس طامحة استطاعت أن تحقق نهضة اقتصادية هي محل إعجاب الكثيرين.

أهمية البرامج المقررة في المؤسسات التعليمية وفي الجامعات:

إن المناهج من أهم المرتكزات التي ينهض عليها التعليم في إعداد نشء متكامل يساهم في النهوض بالأمة وذلك بتعميق فكرة التكامل بين القيم والمعارف، أو بين علوم الدين وعلوم الدنيا، فالفصل بين هذه الثنائية نجم عنه الويلات، وأحدث شرخاً في عمق المجتمع.

فإعادة النظر في المناهج ومحتويات المواد وفي المقررات الدراسية بات ضرورة تفرضها الحاجة، خصوصاً في ظل التحديات والنوازل السياسية والفكرية

والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة، لكي تكون معبرة بصورة واضحة وعملية عن هوية الأمة وأهدافها وتطلعاتها (مجلة وحدة الأمة، 2004، 18)، وانتمائها الحضاري.

أهمية القيم لكل نشاط:

إنّ القيم الأخلاقية تقوم بدور الموجة والضابط للسلوكات التي يقوم بها الإنسان في جميع نشاطاته.

لذلك "إذا لم تؤسس برامج التنمية العامة وبرامج تطوير التعليم بخاصة، على أعمال مقصودة تهدف إلى تنمية القيم لدى الناس تصبح عبثاً لا جدوى منه، ومضيعة للوقت والجهد والمال، لأنّ القيم هي الموجات الأساسية لكل ما يحرره المتعلمون في مجالات العلوم والتطبيقات التقنية" (إسماعيل علي، س. 1406، 156).

والإيمان بالله عز وجل أول قيمة ينبغي الاهتمام بها، وتنشئة الأجيال عليها، وترسيخ الإيمان في الإنسان لا بوصفه قنوات عقلية فحسب ولكن بوصفه مشاعر وأحاسيس وبمراقبة الله تعالى والخضوع له والاعتباط بفضله وبإحسانه (بكار، ع. 1423، 36)، له تأثير إيجابي على صاحبه لا ينكر.

وتنمية الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه ودينه ومجتمعه من القيم الجوهرية، وقد باتت حاجتنا إلى هذه القيم كبيرة اليوم لأنّ إمكانيات الرقابة على الأشياء آخذة في الضعف المستمر، حيث تعودنا على أن نبحت على مشجب نعلق عليه أخطاءنا وإخفاقاتنا (العيسوي، ع. دت، 199).

أثر غياب التوجيه الديني في الدراسة الجامعية.

إن غياب التوجيه الديني في المرحلة الجامعية نجم عنه انعكاسات سلبية في المجتمع، سواء التي تدين بالإسلام أم لا، وهذا ما أكدّه أحد أساتذة الغرب

حينما(العيسوي، ع. دت، 84) يقرر: "إن ما يعوزنا في الغرب وجهة نظر معيارية نستطيع أن نقيم بها حق التقييم كل ما يجري بجامعاتنا في الوقت الراهن".

ثم يقول: "نحن نفتقر إلى نظام من القيم أو دين من الأديان، وإنه لأمر له دلالة"، ثم ذكر من نتائج غياب الصلة بين العلم والدين، والقيم في الغرب أن تمزقت الروابط الإنسانية شر ممزق ولم يعد يربط بين الإنسان وإنسان آخر من الروابط إلا على رابطة المصلحة المجردة، وعلى برودة الدفع نقداً، ومسخت الكرامة الإنسانية وحولتها إلى قيمة مبادلات ولم تبقى إلا على الحرية التجارية العارية من كل ضمير.

ويخلص في النتيجة إلى أنه "يجب أن يكون لنا على الدوام نظام متسق من القيم أو الدين لإضفاء الطابع الشرعي على السلطة السياسية وعلى الدراسة (مولر، ب ف. 1978، 83/2).

وأكد هذه الحقيقة أحد الأساتذة الكبار الذين جمعوا بين التخصص العلمي الدقيق وبين الثقافة الأصلية وهو الدكتور: زغلون النجار يقول: "ولو أن العملية التنموية كما نمت في الدول المعاصرة رافقتها ضوابط أخلاقية إيمانية تنبع من عقيدة صحيحة، ومن وحي إلهي محفوظ بحفظ الله، لتعدت آثارها الحدود المادية للنمو الاقتصادي والاجتماعي، وامتدت إلى عملية النمو الشامل للمجتمعات الإنسانية بكل أبعادها المادية والروحية، وهو أول ما تفتقر إليه المجتمعات المعاصرة على تباين مستوياتها... (النجار، ز. 1409، 80)"

إنّ التعليم بكل مراحله هو عماد نظرية الاستثمار لرأس المال البشري، والتعليم العالي يحتل الدور المحوري في تشكيل الصنوف الأكثر رُقيا من رأس المال الإنساني، وهو الحلقة الأكثر فاعلية في إنتاج المعرفة وإشاعة الثقافة وتنمية الثروة المجتمعية من المعارف والقدرات.

ولكي نجعل الجامعة تساهم في العملية التنموية الشاملة يتطلب الأمر إعادة النظر في المناهج وإضافة وحدات تغذي القلوب بالإيمان وتبعث على الجد والاجتهاد بحيث نجعل منها محراباً يفتق العقول ويحيي النفوس بالقيم والأخلاق ويبني شخصية الفرد، ومنطلقاً للنهوض بالأمة ومصنعا لتنشئة الأجيال وإنتاج الكوادر المؤهلة لتسيير شؤون البلاد في المجالات المختلفة عن كفاءة واقتدار وإخلاص.

فما قيمة العلم إذا لم يكن ذا تأثير وتأثر بالحياة الاجتماعية؟ وما قيمة الشهادة الجامعية إذا لم ترافقها أخلاق فاضلة وشعور بالمسؤولية وحب العمل؟

لقد أدرك كثير من الباحثين على اختلاف مرجعيتهم الثقافية إلى أهمية الجانب الأخلاقي في المراحل التعليمية، لأن القيم هي الوحدة المعيارية في المجتمع، وأن غياب هذا العنصر في المفردات الدراسية يفقد الجامعة روحها ورسالتها.

و نحن إذ نؤكد على دور الجامعة في هذا الأمر فإننا ننبه إلى أن التنشئة الاجتماعية العملية التي يقوم بها المجتمع من خلال مؤسساته المختلفة الأخرى التي من أهمها الأسرة والمؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام والاتصال والمؤسسات الدينية على أن تساهم بدور فعال في تشكيل اتجاهات وسلوك الأفراد وفقاً لثقافة المجتمع وقيمه. (العلواني، و . 2006م، 349).

الخاتمة:

دور التعليم العالي بعامة والجامعة، بخاصة مهم في النهوض بالمجتمع، فقد أظهرت التجارب والبحوث والدراسات أن معدلات البطالة والفقر والجريمة تنخفض كلما ارتفع المستوى العام للتعليم، ومن التعليم العالي أساساً، وترتفع بتأثيره فرص العمل ومستويات الدخل والأجور والإنتاجية والنمو.

وإذا رافق هذا تشبع بالقيم والمثل الروحية كان النمو أكثر شمولاً وأعمق أثراً، وذلك من خلال تطعيم المراحل التعليمية المختلفة بما في ذلك المرحلة

الجامعية بمفردات ومنهاج يراعي هذا التوجه، ويخدم هذا الغرض، ومن ثمة نأمل في جامعتنا دورها الرسالي.

المراجع:

- د.عبد الباقي عبد الكبير: إحياء الفروض الكفائية سبيل تنمية المجتمع، كتاب الأمة، قطر، 1426هـ / 2005م.
- د.عبد الحميد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبع الجزائر.
- د.عبد الرحمن العيسوي: الإسلام والتنمية البشرية، المكتب العربي الحديث، إسكندرية.
- د/ عبد الرزاق مقري: مشكلات التنمية والبيئة والعلاقات الدولية، دار الخلدونية، الطبعة الأولى 1429هـ / 2008م، الجزائر.
- د.عبد الكريم بكار: بناء الأجيال، 1423هـ / 2002م، كتاب البيان، الرياض، السعودية.
- أ. د. عبد الكريم بكار: حول التربية والتعليم، دار العالم، دمشق، ط1، 1422هـ / 2001م.
- د/ رقية طه جابر العلواني: دور المرأة المسلمة في التنمية، مطبعة أوال، الطبعة الأولى 2006م، المنامة، البحرين.
- د. زغلول النجار: قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، كتاب الأمة، 1409هـ، قطر.
- أ.د.سعيد إسماعيل علي: الخطاب التربوي الإسلامي، كتاب الأمة، 1406هـ، قطر.
- د.قطب مصطفى سانو: النظم التعليمية الوافدة في إفريقيا، (قراءة في البديل الحضاري)، كتاب الأمة، محرم 1419، قطر.
- مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر، ط3، 1977م. دمشق.

- د/ مراد زعيمي: مؤسسة التنشئة الاجتماعية، دار قرطبة، الطبعة الأولى 1427هـ / 2007م.
الجزائر.

دوريات:

- دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد السادس، السنة 2004م / 2005م. مجلة علمية تصدرها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر.
- كتاب الأبحاث (مؤتمر التعليم العالي الأهلي)، صنعاء 2000م، اليمن.
- كتاب الأصالة، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر، باتنة، 1398هـ / 1978م، وزارة الشؤون الدينية.
- مجلة وحدة الأمة، السنة الثانية، العدد الثاني، 2004م، المعهد العالمي لوحدة الأمة، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا.